الأرض ولكن ينزّل بقَدرٍ مايشاء. إنّه بعباده خبيرٌ بصير ﴾ وجاء فى الحديث : إنّ مِنْ عبادى لمن لا يصلحه إلاّ الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه. وإنّ من عبادى لمن لا يصلحه إلاّ الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه.[1] .

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

خشية إملاق : خوف فاقة وفقر[2] .

كان خِطْئاً كبيراً : يُحْكَى عن العرب : خَطِئْت إذا أذنبت عمداً. وأخطأت إذا وقع منك الذّنب خطأ على غير عمد منك له[3] والخطأ : العدول عن الجهة، وذلك أضرب، أحدها : أن يريد غير ماتَحْسُن إرادته فيفعلَه. وهذا هو الخطأ التّامّ المأخوذ به الإنسان. يقال : خَطِىء يَخْطأُ خطْأً وخِطْأةً قال تعالى : ﴿ إنّ قتلهم كان خِطْئاً كبيرا ﴾ وقال [4] : ﴿ وإن كنّا لخطائين ﴾ والثّانى : أن يريد مايَحْسُنُ فعله ولكن يقع منه خلاف مايريد، فيقال أخطأ إخطاءً فهو مُخْطِىء. وهذا قد أصاب فى الإرادة وأخطأ عن الفعل. وهذا المعنيّ بقوله عليه السّلام، رُفع عن أمّتى الخطأ والنّسيان. وبقوله : من اجتهد فأخطأ فله أجر : ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنة ﴾[5] والثّالث : أن يريد ما لايَحْسُنُ فعله ويتّفِقَ منه خلافُه. فهذا مخطِىءٌ فى الإرادة ومصيبٌ فى الفعل، فهو مذمومٌ بقصده وغير محمودٍ على فعله[6] .

إنّ رب العزّة والجلال، وهو أرحم بالصّغار من والديهم، ينهى الآباء عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨.
(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٥.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٥.
(٤) سورة يوسف ٩١.
(٥) سورة النساء ٩٢ وقد أكملنا الجزئيّة الكريمة.
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خطأ» ١٥١.

قتل الأبناء والبنات خوف الفقر المتوهّم أو الواقع فعلاً. لقد جرت عادة بعض عرب الجاهليّة القَساة القلوب الغلاظ الأكباد، أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، وأن يقتلوا بناتهم على جهة الخصوص، خشية العار إضافةً إلى خشية الفاقة. إنّ ربّ العزّة والجلال الّذى تكفّل لكلّ دابّةٍ فى الأرض برزقها يطمئن الآباء بأنّه عزّ وجلّ يرزق الأبناء كما يرزق الآباء، فلا داعي لخشية الفقر. والآباء منهيّون عن قتل الأبناء ووأد البنات. إنّ قتل الأولاد والبنات كان دائماً وأبداً خطأً متعمداً كبيرا، من ذلك الفريق القاسى القلب الغليظ الكبد من الآباء.

ووجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة وبين ماجاء فى إحدى آيات الحكمة من سورة الأنعام وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾ وفرق بين الآيتين الكريمتين أنّ آية الحكمة من سورة الإسراء تتحدّث عن فقرٍ متوقّع أو متوهّم لذا جاء التّحذير من خشية الفقر فلا داعي لهذه الخشية السّبب فى قتل الأولاد ووأد البنات، كما جاء الضّمير العائد إلى الأولاد متقدّماً على الضّمير العائد إلى الآباء. قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإيّاكم ﴾ أمّا فى آية الحكمة من سورةالأنعام الّتى تتحدّث عن فقرٍ حاصلٍ فعلاً فإنّها تشير إلى هذا الفقر الحاصل من ناحيةٍ، وتقدّم فى الّذكر الضّمير العائد إلى الآباء على الضّمير العائد إلى الأبناء. قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾ والله تعالى أعلم.

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

إنّه كان فاحشة : الُفحش والفحْشاء والفاحشة : ماعَظُم قُبحه من الأفعال والأقوال[2] .

بعد أن نهت الآية الكريمة السّابقة عن قتل الأولاد بطريقٍ مباشر خوف الفقر والفاقة فى المقام الأوّل نهت هذه الآية الكريمة التّالية عن قتل الأولاد بطريقٍ غير

---

(١) سورة الأنعام ١٥١.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فحش» ٣٧٣.

مباشر وذلك بالنّهي عن ارتكاب فاحشة الزّنى. إنّ الآية لكريمة تنهى عن مجرّد الاقتراب من الزّنى، وذلك أبلغ من النّهي عن ارتكابه، لأنّ النّهي عن مجرّد الاقتراب نهيٌ عن الرّعى حول الحمى وعن الدّنوّ من الأسباب. وإنّما كان الزّنى عملاً غايةً فى القبح والشّناعة، وسبيلاً غايةً فى السّوء والمشقّة لأنّه فى كلّ مراحله وتبعاته الغاية فى السّوء سبيلاً ومصيرا. إنّ من موبقات هذه الفاحشة أنّ فيها هتكاً للأعراض، وسفحاً لماء الحياة، وحكماً بالموت الحسّيّ أو المعنويّ على الذّرّيّة فلا رغبة لدى الزّانية والزّانى فى الإنجاب، وفى حال الحمل ، وقد أخذ كلٌّ من الزّانيين سبيله الخاصّ به، حرصٌ على قتل تلك النّفس البريئه بالتّخلّص منها عن طريق الإجهاض، أو القذف بها فى أيّ مكان. وإذا كان ثمّة معاناةٌ من الأطفال فى حال وجود الوالدين أو أحدهما ومعرفتهما والحياة معهما أو فى حال وفاتهما أو وفاة أحدهما إلى غير ذلك من الحالات فكيف بمعاناة أولئك اللّقطاء الّذين يظنّ الواحد منهم أنّ كلّ رجلٍ وإمرأةٍ والداه ثمّ يتبيّن حال التّمييز المأساة الّتى اضطرته فاحشة الزّنى إليها. هذا إلى الحقد الدّفين الّذى لا يكاد ينتهى إلاّ بالموت. إنّ الزّنى فاحشةٌ وأسوأ سبيلٍ يسلكه الإنسان.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

بعد نهي الآيتين الكريمتين السّابقتين عن قتل الأولاد بطريقٍ مباشر، وبطريقٍ غير مباشر بارتكاب فاحشة الزّنى، يتمّ التّحوّل فى هذه الآية الكريمة إلى النّهي عن مطلق القتل لأيّ نفسٍ إلاّ بالحقّ. إنّ الآية الكريمة تنهى عن قتل كلّ نفسٍ بريئةٍ إلاّ بالحق. ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال : لا يحلّ دم امرىءٍ مسلم يشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث : النّفس بالنّفس والزّانى المحصَن[1] والتّارك لدينه المفارق للجماعة. وفى السّنن: لَزَوال الدّنيا عند الله أهون من قتل مسلم[2] .

وكما كان النّهي عن قتل النّفس البريئة ظلماً، كان النّهي لوليّ المقتول ظلماً عن تجاوز حدوده. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل لوليّ المقتول ظلماً سلطاناً وسلطةً على القاتل بواسطة الدّولة الّتى جعل الله تعالى من واجباتها تطبيق الأحكام الشّرعيّة. إنّ وليّ المقتول بالخيار فى القاتل. إن شاء قتله قَوَداً. وإن شاء عفا عنه على الدّية. وإن شاء عفا عنه مجّاناً كما ثبتت السّنّة بذلك[3] وإنّ على وليّ المقتول ظلماً، المنصور بشرع الله تعالى، ألاّ يُسْرف فى القتل كما كان يفعل أهل الجاهليّة بقتل القاتل وغيره، أو قتل غير القاتل أو التّمثيل بالقتيل وما إلى ذلك.

---

(١) المحصَن والمحصَّنة بفتح الصّاد فيهما الرّجل والمرأة المتزوّجان.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾

حتّى يبلغ أشدّه : حتّى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه.[1] .

إنّ العهد كان مسئولا : أي عنه[2] .

تنهى الآية الكريمة الأوصياء والأولياء ومن فى حكمهم عن الاقتراب من أموال اليتامى إلاّ بالطّريقة الّتى هي أحسن حتّى يبلغ اليتيم أشدّه ويأنس الوصيّ أو الوليّ فيه رشده وقدرته على حسن رعاية ماله وتدبيره. وفى مثل هذا المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّساء[3] : ﴿ وابتلوا اليتامى حتّي إذا بلغوا النّكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبَرُوا. ومن كان غنيّاً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف. فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم. وكفى بالله حسيبا ﴾ إنّ الآية الكريمة تأمر أولياء اليتامى بأن يختبروا قوى اليتامى العقليّة وقدرتهم على حسن التّصرّف فى أموالهم حتّى يبلغ اليتامى الحلم ويستكملوا خمس عشرة سنة[4] فإن وجد الأولياء فى اليتامى عقلاً وقدرةً على حسن التّصرف فى أموالهم على الأولياء أن يدفعوا إلى اليتامى أموالهم كاملةً غير منقوصةٍ ولا مبخوسة. والأولياء منهيّون عن أكل أموال اليتامى بطريقٍ غير مباشرٍ بالإسراف فى الإنفاق وبطريقٍ مباشرٍ بالمبادرة إلى أكلها قبل أن يَكْبَرَ اليتامى ويطالبوا بها[5] .

ولمّا كان أولياء اليتامى مأمورين شرعاً برعاية أموال اليتامى فكأنّ ثمّة عهداً على أولياء اليتامى أو يوفوا به لله تعالى وإلاّ كانوا ناكثين للعهد، كان فى الآية الكريمة تحوّلٌ من هذا العهد المفهوم ضمناً إلى العهد المنطوق به لفظاً ، وذلك فى

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩ والجلالين.

(٣) الآيـــة ٦

(٤) انظر هنا ـ مثلاً ـ تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٢.

(٥) انظر ـ مثلاً ـ التفسير البسيط للقرآن الكريم للمؤلّف ٤/ ٢٦٤و٢٦٥.

الشقّ الآخر من الآية الكريمة. إنّنا جميعاً مأمورون بالوفاء بالعهود. ويأتى على رأس العهود الّتى ينبغى الوفاء بها العهد الّذى أخذه الله تعالى علينا ونحن فى عالم الذّرّ بأن نفرده جلّ وعلا بالعبادة. ويأتى بعد هذا العهد سائر العهود. وتقرّر الآية الكريمة فى خِتامها أنّ العهد كان صاحبه دائماً وأبداً مسئولاً عنه. هل وفى به أم نقضه؟.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

وزنوا بالقسطاس : القسطاس : الميزان[1] ويعبَّر به عن العدالة كما يعبَّرُ عنها بالميـــــزان[2].

المستقيم : السّوي[3].

أمرت الآية الكريمة السّابقة النّاس بالوفاء بالعهود وهي من المعنويات، تأمر هذه الآية الكريمة التّالية بالوفاء عند الكيل والوزن وهما من المحسوسات. إنّ الآية الكريمة تأمر التّجّار والبائعين بأن يوفوا الكيل إذا كالوا الآخرين ساعة البيع والشّراء وأن يزنوا ماينبغى وزنه بالميزان السّويّ. إنّ إيفاء الكيل والوزن خيرٌ حالاً وأحسن مآلاً فى الدّنيا والآخرة.

ومع أنّ المعنى أساساً : وزنوا بالقسطاس المستقيم إذا وزنتم، فإنّ فى الاكتفاء بالقول عن الكيل : ﴿ إذا كلتم ﴾ إيماءً إلى أنّ علاقة البائع المباشرة بما يكيل أقوى من علاقته بما يزن. وتفسير ذلك أنّ الّذى يكيل يستطيع أن يطفّف بطريقٍ مباشر ساعة يكيل، أمّا الّذى يزن فإنّ تطفيفه يمكن أن يتحقّق حينما يفسد الميزان ذاته وبالتّالى هو يزن بميزان غير مستقيمٍ ولا سويّ أصلا. إنّ فى مجيء القول : ﴿ إذا كلتم ﴾ وفى عدم مجيء القول : « إذا وزنتم » إيماءً إلى مباشرة من يكيل عمليّة الكيل بنفسه وإلى عدم مباشرة من يبيع عمليّة الوزن بنفسه. والله تعالى أعلم.

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦١ وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٩ والجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانى «قسط» ٤٠٣

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قسط» ٤٠٣.

(٣) الجـــــلالين.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

ولا تقف : لا تتبع[1] والقفا : مؤخّر العنق، يذكّر ويؤنّث[2] يقال : قَفَوْته: أصبت قفاه. وقفوت أثره واقتفيته تَبِعت قفاه. والاقتفاء : اتّباع القفا[3] .

تنهى الآية الكريمة كلّ إنسان عن أن يقول بغير علمٍ وأن يتجشّم مشقّة ادّعاء علم ماليس له به علم، ومن ذلك شهادة الزّور. وتأكيداً لمسئوليّة الإنسان تقرّر الآية الكريمة أنّ الإنسان مسئولٌ عن سمعه وبصره وفؤاده، ومن باب الأحرى أن يكون مسئولاً عن كلّ مايصدر عنه من قول أو فعل.

والمعروف أنّ الإنسان ليس له ـ مثلاً ـ سلطةٌ مباشرةٌ على سمعه لأنّ الأذن، على سبيل المثال، تسمع مايحبّ الإنسان سماعه ومايكره، وبشأن القلب جاء قول الحقّ جلّ وعلا[4] : ﴿ واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون ﴾.

وحينما يكون الإنسان مسؤولاً عن الجوارح الّتى لا سلطة له عليها فمن باب الأحرى أن يكون مسئولاً عن كلّ ماله سلطةٌ عليه، وكلّ مايصدر عنه من قولٍ أو فعل.

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

ولا تمش فى الأرض مرحاً : مختالاً مستكبراً.[5] .

تنهى الآية الكريمة المسلم لله ربّ العالمين أن يمشي فى الأرض مختالاً مستكبراً، يضرب بعقبيه[6] الأرض تارةً وكأنّه يريد أن يشدّ إنتباه الجميع إليه، لذا هو يدقّ بعقبيه الأرض متمنّياً فى أعماقه لو أنّه حفر الأرض بعدد مرّات دقّه لها

---

(١) الجلالين.
(٢) المعجم الوسيط : «قفا» ٧٥٢.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى «قفا» ٤٠٩.
(٤) سورة الأنفال ٢٤.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٢.
(٦) العقب : عظم مؤخّر القدم، وهو أكبر عظامها.

بعقبيه، وشدّ انتباه الآخرين بعدد مرّات دقّه الأرض. وتارةً أخرى هو يمشى معتمداً على باطن القدم وربّما على رءوس أصابعها، منتصب القامة، مرفوع الهامة، معبّراً بذلك عن تمنّيه أن يطول ويطول فائتاً البشر، متجاوزاً كلّ حَجَر. ويصحّ أن يكون هذا الّذى يريد فى مشيه أن يطير هو المختال الّذى عناه حكيم المعرّة بقوله[1] .

سر إن اسطعت فى الهواء رويداً : لا اختيالاً على رفات العباد

ولمّا كان القرآن الكريم قد عاب كلاًّ من المختال والفخور فى مثل قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ إنّ الله لا يحبّ من كان مختالاً فخورا ﴾ وقد عرفنا صفة المختال فإنّ الصّفة الأخرى فى أثناء المشي وهي ضرب الأرض بالعقبين يصحّ أن تكون دليلاً على الفخور الّذى يشعر فى أعماقه بثقل وزنه. إنّ الآية الكريمة تقول للضّارب الأرض بعقبيه إنّه لن يخرقها بضربه لها، وتقول لّلذى يمشى على رءوس الأصابع إنّه لن يستطيع أن يبلغ الجبال طولاً. وإنْ كان الفخور والمختال يتمنّيان ذلك. وبعد النّهى عن طرفي المشي البغيضين لا يبقى سوى الطّريق الوسط وهو المشي هوناً الّذى أشار إليه قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الفرقان[3] : ﴿ وعبادُ الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ كلّ ذلك المذكور فى آيات الحكمة كان سيّئه عند ربّك

---

(١) شروح سقط الزّند القسم الثّالث القصيدة الثالثة والأربعون ص ٩٧٥ الدّار القوميّة للطباعة والنّشر القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.

(٢) سورة النساء ٣٦.

(٣) الآية ٦٣.

أيّها الرّسول الكريم وأيّها الإنسان مكروهاً . إنّ عليك أيّها الإنسان أن تحرص على الاتصاف بأجمل الصّفات وأحسن النّعوت. إنّ عليك أن تفرد الله تعالى بالعبادة، وتبرّ والديك، وتصل رحمك، وتعطي كلّ ذى حقٍّ حقّه، وأن تنفق باعتدال، وتحسن تربية أبنائك، وتنأى عن ارتكاب صَغار الزّنى، وعن قتل النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحق، عن طريق الدّولة وحدها، وأن تراقب الله تعالى فى مال اليتيم، وأن توفى بالعهد، وبالكيل، وبالوزن، وأن يكون العلم الصّحيح قائدك فإنّك محاسبٌ على كلّ صغيرةٍ وكبيرة، وأن تمشي على الأرض هَوْنا. واللّطيف فى الأمر أنّ القضيّة الوحيدة الّتى تحدّثت فيها الآيات الكريمات مرّتين اثنتين، بل ابتدأت بها وانتهت هي قضيّة التّوحيد على نحو مايتبيّن من الآية الكريمة التّالية.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

مدحوراً : عن ابن عبّاس مطرودا[1] .

ذلك المذكور فى الآيات الكريمات من النّعوت الحسنة الّتى ينبغى التّحلّى بها، والصّفات السّيّئة الّتى ينبغى التّخلّى عنها، ممّا أوحى إليك ربّك يامحمّد من الحكمة الّتى ترضى كلّ عقلٍ بفصوصها، وتشبع كلّ نفسٍ بعميق أثرها.

وكما ابتدأت آيات الحكمة الكريمة بالحديث فى أخطر قضيّة وهي قضيّة

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٤.

التّوحيد، انتهت بالحديث فى هذه القضيّة الخطيرة ذاتها. إنّ الآية الكريمة تنهى كلّ إنسان عن أن يجعل مع الله تعالى إلهاً آخر فتكون العاقبة الوخيمة ـ لا سمح الله ـ بالإلقاء به فى جهنّم ملوماً من جهة نفسه ومن جهة الآخرين على مافرّط فى الحياة الأولى فى جنب الله تعالى، مدحوراً مطروداً من رحمة الله تعالى فى الحياة الآخرة بدليل الإلقاء به فى سواء الجحيم والعياذ بالله.

(٥)

« تسبّح السّماوات والأرض ومن فيهنّ لله تعالى الواحد الّذى يزيد المنصرفين عن القرآن الكريم الظّالمين عمىً وصمما »

الآيـات (٤٠ ـ ٤٨)

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم
بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

أفأصفاكم ربّكم بالبنين : أفخصّكم ربّكم بالذّكور من الأولاد[1] .

تبيّن فى آيات الحكمة السّابقة أنّ أهّم حبّةٍ فى عقدها مسألة التّوحيد الّتى ابتدأت الآيات الكريمات وانتهت بالحديث عنها. وهاهى ذى أولى آيات هذا القسم تتحدّث فيها. إنّ العرب عموماً، كفّار مكّة خصوصاً، يزعمون أنّ الملائكة بنات الله : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾ والعجيب فى كفّار مكّة وسائر المشركين من العرب أنّهم يبغضون الإناث إلى الحدّ الّذى يدفن معه بعضهم بناتِه وهنّ على قيد الحياة. وبذلك يكون هؤلاء فى نسبتهم الملائكة إلى الله تعالى قد ارتكبوا مجموعةً من الأخطاء، منها نسبة الولد إلى الله تعالى ولا يأتى فى العادة إلاّ من صاحبة، ونسبة الإناث إلى الله تعالى فقد جعلوا الملائكة الّذين هم عباد الله تعالى إناثاً وزعموا أنّهم بنات الله تعالى، فى الوقت الّذى يحبّون فيه الذّكور لأنفسهم وهم المخلوقون لله تعالى والّذين يعترفون بذلك. وتجاه هذه السّلسلة من الأخطاء والمتناقضات تسأل الآية الكريمة كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين فى إنكار : أفخصّكم ربّكم جلّ وعلا بالذّكور من الأولاد الأسمى - فى نظركم - من الإناث واختار جلّ وعلا لنفسه الملائكة إناثاً وبنات! إنّكم تجاه هذا الخطل من القول والخطأ من التّصوّر والخطر من الاعتقاد لتقولون قولاً عظيما : ﴿تكاد السّماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّا[2]﴾ .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٦.

(٢) سورة مريم ٩٠.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

ومايزيدهم إلاّ نفورا : النّفور فى هذا الموضع مصدر من قولهم : نفر فلانٌ من هذا الأمر ينفِر منه نفراً ونفوراً[١] والنّفر : الانزعاج عن الشّىء وإلى الشّىء كالفزع إلى الشّىء وعن الشّىء [٢].

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال قد صرّف فى هذا القرآن الكريم من ضروب القول وأنواع الأساليب، من وعدٍ ووعيدٍ ومثلٍ وقصَصٍ ووصفٍ وما إلى ذلك من أجل أن يتّعظ النّاس وفى مقدّمتهم كفّار مكّة ويرعووا عن الشّرك وينضمّوا إلى قافلة الموحّدين . والعجيب فى كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين أنّهم لا يزدادون بتنويع طرائق القول فى القرآن الكريم إلاّ نفوراً من القرآن الكريم، وانزعاجاً عن التّوحيد، وفزعاً إلى الأصنام، وغوصاً فى وَحَل الشّرك.

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

يصحّ أن ننظر إلى الآية الكريمة فى ضوء قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنبياء[٣] : ﴿ أَمِ اتخذوا آلهةً من الأرض هم يُنْشِرون[٤] لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٤.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « نفر » ٥٠١.
(٣) الآيات ٢١ـ٢٥.
(٤) ينشرون : يحيون الموتى.

لفسدتا. فسبحان الله ربِّ العرش عمّا يَصِفون. لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون. أم اتّخذوا من دونه آلهة. قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى[1] بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ فهم معرضون. وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلاّ نوحى إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾.

ومعنى آية سورة الإسراء الكريمة، والله تعالى أعلم، قل يامحمّد، لو كان مع الله تعالى آلهةٌ أخرى كما يقول كفّار مكّة وكما يزعم المشركون لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً، ولَحَرَص كلّ واحدٍ من الآلهة على أن يدبّر شأن الشّىء الّذى خلق، وعلى أن يكون له الأمر والحكم بشأن من خلق، وبذلك يذهب كلّ إلهٍ بما خلق وبمن خلق، وفى ذلك الفساد كلّ الفساد. ولمّا كان الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً بدليل صلاح الكون وخضوعه، بإرادة الله تعالى، لنظامٍ واحد دقيق، لذا وجب إفراد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة ونبذ الآلهة المزعومة. وإلى هذا التّنزيه للذّات العليّة أومأت الآية الكريمة التّالية.

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

سبحانه : تنزيهاً له[2].

تنزيهاً له عزّ وجلّ وعلواً كبيراً عمّا يقول الظّالمون الّذين يشركون مع الله تعالى فى العبادة سواه ويزعمون أنّ له جلّ وعلا شريكاً من صاحبةٍ وولدٍ ومن إليهما.

---

(١) المعنى : هذا هو القرآن الكريم ذكر من معى وموعظة أمّتى وكلّ الأمم، إضافة إلى التّوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله تعالى وكلها تدعو الى التوحيد.

(٢) الجلالين وتفسير الطّبرى ١٥/ ٦٥.

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده : وما من شيءٍ من خلقه إلاّ يسبّح بحمده[1] أي يقول : سبحان الله وبحمده[2] .

ولكن لا تفقهون تسبيحهم : ولكن لا تفهمون تسبيحهم[3] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ السّماوات والأرض ومن فيهنّ من الملائكة والإنس والجنّ المؤمنين تسبّح له جلّ وعلا بقول: سبحان الله ، تنزيهاً له جلّ وعلا وتقديساً. كما تقرّر الآية الكريمة أنّه ما من شيءٍ من حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ إلاّ يسبّح بحمد الله تعالى بقول : سبحان الله وبحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم ولا نفهم تنزيههم لله جلّ وعلا لأنّه ليس بلغاتنا. إنّ الله سبحانه وتعالى كان دائماً وأبداً حليماً حينما لا يعاجل المذنبين بالعقوبة، غفوراً لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

ثبت فى صحيح البخاريّ عن ابن مسعودٍ أنّه قال : كنّا نسمع تسبيح الطّعام وهو يؤكل. وفى حديث أبى ذرٍّ أنّ النّبيّ ﷺ أخذ فى يده حصياتٍ فَسُمِعَ لهنّ تسبيحٌ كحنين النّحل، وكذا فى يد أبى بكرٍ وعمر وعثمان رضي الله عنهم. وهو حديثٌ مشهورٌ فى المسانيد[4] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٥.
(٢) الجلالين.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢.

وَإِذَا قَرَأْتَ
ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ
وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا
﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ
إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

حجاباً : ساتراً (١) .

مستوراً : عن العباد فلا يرونه(٢) .

أكنّة : أغطية . والكِنان الغِطاء الّذى يُكَنُّ فيه الشّىء، والجمع أكنّة نحو غطاء وأغطية(٣) .

أن يفقهوه : من أن يفهموا القرآن، أي فلا يفهمونه(٤) أي لئلاّ يفهموا القرآن(٥) .

وقرا : الوَقر بالفتح فى الأذن الثّقل، والوِقر بالكسر الحِمْل(٦) يقال : وقَرَت أذنه تَقِر وتَوْقَر(٧) .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٦.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٦.
(٣) مفردات الراغب الأصفهانى : «كن» ٤٤٢.
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٦.
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «وقر» ٥٢٩.

نحن أعلم بما يستمعون به : بسببه من الهزء[1] .

إذ يستمعون إليك : وأنت تقرأ كتاب الله[2] .

وإذ هم نجوى : يتناجون بينهم أي يتحدّثون[3] .

إن تتّبعون إلاّ رجلاً : ماتتّبعون إلاّ رجلا[4] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ المصطفى ﷺ إذا قرأ القرآن الكريم جعل الله سبحانه وتعالى بين المصطفى ﷺ وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لما بعد الموت حجاباً مستوراً وستاراً لايرونه وبالتّالى يزدادون عمى بصيرةٍ إلى عماهم وصمماً عن سماع دعوة الحقّ إلى صممهم.

وبالإضافة إلى الحجاب الّذى يحول فى المقام الأوّل بين نور الهداية وبين الكافرين أن يصلهم تقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل على قلوب الّذين لا يؤمنون بالبعث أغطية لئلا يفهموا القرآن الكريم الّذى انصرفت عنه قلوبهم أوّل مرّة، وبذلك تأكدّ انصراف تلك القلوب عن القرآن الكريم. وكما جعل الله تعالى على قلوب القوم أغطيةً جعل فى آذانهم ثِقَلاً وصَمَماً وبذلك لا يسمع القوم القرآن الكريم سماع تدبّر لأنّهم كانوا حريصين على عدم سماع القرآن الكريم أصلاً. لقد زاد الله تعالى تلك الآذان صمماً إلى صممها فغدت لا تفقه بعد أن كانت حريصةً على عدم السّماع المجرّد للقرآن الكريم. وإذا ذكر المصطفى ﷺ ربّه جلّ وعلا وحده لا شريك له وذلك فى أثناء تلاوة القرآن الكريم، ولّى المشركون على أدبارهم نفوراً.

وحينما يكون التّولّى بمعنى الإعراض وترك القرب[5] يكون معنى القول: : ﴿ ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ رجعوا على أدبارهم نافرين عن القرآن

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطبرى ١٥/ ٦٧.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٧ والجلالين.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ولى» ٥٣٤.

الكريم وعن المصطفى ﷺ الّذى يرتّله ترتيلاً وكأنّهم فوجئوا بخطرٍ عظيمٍ يهاجمهم وليس لديهم الفرصة كي يولّوا الأدبار فارتدّوا على أدبارهم فعل من يرجع القهقرى، عازماً على درء الخطر عنه بكلتا يديه، غير واثقٍ من تمكّنه من توليته مهاجمه دبره، لأنّ الهجوم كاسح، والخطر محدق، فلا مندوحة من مراقبة الهجوم، والارتداد على العقبين، والاستعداد لدفع الخطر، مع الاستمرار فى الرّجوع إلى الوراء. إنّ أمثال هذه الملابسات لازمت المعرضين عن القرآن الكريم، مع ملاحظة أنّ الباعث للقوم هو نفورهم القلبّي من القرآن الكريم ومن المصطفى ﷺ.

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال أعلم بما يستمعون به القرآن الكريم من تكذيبٍ واستهزاء، إذ يستمعون إليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وأنت تتلو القرآن الكريم، وإذ هم غارقون فى مناجاة بعضهم بعضاً حتّى لكأنّهم النّجوى ذاتها لفرط اهتمامهم بالأمر الّذى اجتمعوا للمناجاة من أجله. وقد عبّر الظّالمون عن حقدهم الدّفين بالقول للمؤمنين إنّهم باتّباعه ﷺ مايتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً مغلوباً على قواه العقليّة بقوىً خفيّةٍ خارجيّةٍ شرّيرة.

والآية الكريمة الرّابعة تتعجّب من أولئك الظّالمين الّذين جعلوا مَثَلَ المصطفى ﷺ مَثَلَ المسحور والكاهن والشّاعر والكاذب ومن إلى هؤلاء، والحقيقة أنّهم هم الضّالّون الّذين لا يستطيعون سبيلاً ولا يهتدون طريقاً.

(٦)

« منكرو البعث سوف يستجيبون
بحمد الله تعالى لدعوته جلّ وعلا لهم يوم
القيامة، وادعوا إلى الله على بصيرة، وكما
يكـــون التّفاضل فى الأولـــى
يكـــون فى الآخرة »
الآيات (٤٩ ـ ٥٧)

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

كفّار مكّة المعرضون عن القرآن الكريم المنكرون للبعث بعد الموت ومن شاكل كفّار مكّة من المشركين يقولون فى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ: أئذا كنّا بعد الموت عظاماً، وغدت عظامنا رفاتاً وفتاتاً[1] وحطاماً[2] وتراباً فى قبورنا[3] أئنا لمبعوثون أحياءَ خلقاً جديد !

۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

قل يامحمّد لأولئك المنكرين للبعث المستهزئين المستبعدين عودة الحياة إلى العظام الّتى غدت رميماً كونوا إن شئتم حجارةً أو حديداً هي جمادٌ دائماً وأبداً فإنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء قادرٌ على إعادة الحياة إلى ذلك المخلوق فكيف يستبعد كفّار مكّة ومن شاكلهم عودة الحياة إلى العظام الألصق بها الحياة من الحجارة والحديد وكلّ جماد.

---

(١) مفردات الرّاغب لأصفهانى : «رفت» ١٩٩.
(٢) فتح البارى ٨/ ٣٨٩.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٦٨.

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

فسينغضون إليك رءوسهم : الإنغاض تحريك الرّأس نحو الغير كالمتعجّب منه[1] ويقال : نَغَضَ رأسُه إذا تحرّك، وأَنْغَضَه إذا حرّكه، ومنه الحديث : وأخذ يُنْغِض رأسه كأنّه يستفهم مايقال له أي يحرّكه ويميل إليه. وفى التّنزيل العزيز : ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾ قال الفرّاء : أنغض رأسه إذا حرّكه إلى فوقُ وإلى أسفل[2] قال أبو الهيثم : يقال للرّجل إذا حُدِّث بشيء فحرّك رأسه إنكاراً له : قد أنغَضَ رأسه[3] عن ابن عبّاس قال : يحرّكونها استهزاء[4].

أمرت الآية الكريمة السّابقة منكرى البعث المستهزئين أن يكونوا حجارةً أو حديداً إن استطاعوا فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يبعثهم يوم القيامة. وتواصل هذه الآية الكريمة التّالية الحديث فتأمر منكرى البعث أن يكونوا خلقاً آخر غير الحجارة والحديد ممّا يكبر فى صدورهم ويعظم فى نفوسهم ويعتقدون فى أعماقهم أنّ استحالة عودة الحياة إليه آكد. إنّ الله سبحانه وتعالى سوف يعيدهم إلى الحياة

---

(١) مفردات الرّاغب لأصفهانى : «نغض» ٥٠٠.
(٢) لسان العرب : «نغض».
(٣) لسان العرب : «نغض».
(٤) فتح البارى ٨/ ٣٨٨.

يوم القيامة وسوف يحاسبون ويجازون.

إنّ كفّار مكّة فى المقام الأول حينما يفاجأون بمثل هذا القول يسألون المصطفى ﷺ متعجّبين قائلين : ﴿ من يعيدنا ﴾ ؟ والمعنى : من يعيدنا إلى الحياة مرّة أخرى بعد أن صرنا تراباً وعظاماً. والجواب معروف. وهاهو ذا المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقول لهم : إنّ الّذى يعيدهم إلى الحياة هو الّذى خلقهم أوّل مرّة. إنّه الله تعالى الّذى لا اله إلاّ هو. ومع أنّ النّوعين من الخلق سواءٌ فى حقّ الذات العليّة فإنّ الّذى استقرّ فى نفوس المشركين ونفوس غيرهم أنّ إعادة العمل أهون من الإيجاد ابتداءً. وبذلك تزداد حيرة المشركين، لأنّ المنطق الّذى ينادون به لا يستسيغونه فى هذه المسألة، ولذلك هم ينغضون إلى المصطفى ﷺ رءوسهم ويحرّكونها تجاه المصطفى ﷺ فى أثناء رفعهم لها قائلين متعجّبين ممّا يسمعون : متى يكون البعث؟ ويلقّن المصطفى ﷺ الجواب: ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ولمّا كان من مات فكأنما قامت قيامته وكان الموت بداية الآخرة وما أقرب الموت من كلّ إنسان فقد تأكد قرب البعث بعد الموت، وصَدَقَ قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ عسى أن يكون قريبا ﴾ لأنّ عسى من الله واجب[1] .

ومن البيّن أنّا نفهم من الجواب على السّؤال عن وقت البعث والإيماء إلى احتمال قربه أنّ السّائلين من المشركين يظلّون يستبعدون البعث.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ
وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يوم يدعوكم : يناديكم من القبور على لسان إسرافيل[2] .
إن لبثتم : مالبثتم[3] .

---

(١) تفسير الطّبري ١٥/ ٧٠.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير الطّبري ١٥/ ٧٠.

يوم يدعوكم ربّكم جلّ وعلا على لسان إسرافيل عليه السلام للخروج من قبوركم فتستجيبون بحمده، وتجيبون بالطّاعة والإذعان قائلين : الحمد لله، والثّناء كلّه لربّنا عزّ وجل، وتظنّون لهول يوم القيامة أنّكم مالبثتم فى الحياة الدّنيا إلاّ قليلا، ومامكثتم فى الأرض إلاّ وقتاً يسيرا.

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ
عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

إنّ الشّيطان ينزغ بينهم : يفسد بينهم يهيج بينهم الشّر[1].

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لعباد الله تعالى الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ أن يقولوا الكلمة الّتى هي أحسن، وأن يكون كلامهم عفيفاً كسلوكهم النّظيف. وتعيّن الآية الكريمة السّبب وراء انحراف اللّسان عن طريق القَصْد والاعتدال، إنّه الشّيطان الرّجيم الّذى يحرص على الإفساد بين العباد وتهييج الشّرور بينهم. إنّه العدو الدائم العداوة للإنسان. ومن الأدلّة على هذه العداوة حرصه على التواء الألسنة ثمرةً نكدةً للّيّ اللّعين للنفوس وتعكيره صفو القلوب.

وإنّ الدّعاة إلى الله تعالى هم العمود الفِقَرِيّ لهؤلاء العباد، فعليهم الامتثال

---

(١) تفسير الطّبري ١٥/ ٧١.
(٢) سورة النّحل ١٢٥.

لهذا الأمر السّماوى ولمثل قول الحقّ جلّ وعلا[٢] : ﴿ أُدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتى هي أحسن. إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾. وهكذا يقول الدّعاة الكلمة الّتى هى أحسن ويضيّقون بإذن الله تعالى مسالك الكفر ومسارب الشّيطان الرّجيم.

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

وما أرسلناك عليهم وكيلا : الوكيل الموكلّ عليهم الحافظ لهم[١] .

ربّكم أعلم بكم أيّها المنكرون للبعث المستبعدون عودتكم أحياء يوم القيامة. إن يشأ جلّ وعلا يرحمكم فتتوبوا وتؤمنوا وتعملوا صالحاً، وإن يشأ يعذّبكم بأن تموتوا على الشّرك. وما أرسلناك يامحمّد عليهم وكيلاً ترغمهم على اعتناق دين الإسلام لله ربّ العالمين. إنّ عليك البلاغَ وحده، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد.

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «وكل» ٥٣١.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

أومأت الآية الكريمة السّابقة إلى علم الله تعالى بخفايا نفوس المنكرين للبعث : وبحقيقة نواياهم تجاه الحقّ وتوفيق الله تعالى لهم بالهداية أو خذْلانهم. وهذا الإيماء إلى نوعٍ من العلم محدود، كان مطيّةلإيماء هذه الآية الكريمة التّالية إلى نوعٍ من العلم أكبر. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ المصطفى ﷺ وربّ كلّ إنسان جلّ وعلا أعلم بمن فى السّماوات والأرض من ملائكةٍ وإنسٍ وجنّ وبكلّ مافيهما. وإذا كان النبيون والمرسلون يتساوون فى إنعام الله تعالى عليهم بنعمتي النّبوة والرّسالة، فإنّ ربّ العزّة الّذى لا رادّ لفضله والذى يعلم حيث يجعل نبوّته ورسالته، قد فضّل بعض النّبيّين وبعض المرسلين على بعض. وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد نصّت على تفضيل بعض النّبيّين، فإنّ الآية الكريمة الثّالثة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة قد نصّت على تفضيل بعض المرسلين. قال عزّ من قائل : ﴿ تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض ﴾ . ومن مظاهر التّفضيل أن آتى الله سبحانه وتعالى داود عليه السّلام الزّبور، وهو أحد الكتب الأربعة السّماويّة السّابقة الّتى ذكرها القرآن الكريم. والثّلاثة الأُخر هي صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم صلوات الله تعالى وسلامه. ونحن فى غنىً عن القول إنّ فى الإيماء إلى التّفضيل وذكر واحدٍ من مظاهره تأكيداً لعلم الله تعالى المحيط. ولابن كثيرٍ فى تفسيره[1] كلامٌ لطيف فى هذا المعنى حيث يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة : « ولا خلاف أنّ الرّسل أفضل من بقيّة الأنبياء، وأنّ أولى العزم منهم أفضل. وهم

(١) ٣/ ٤٦.

الخمسة المذكورون نصّاً فى آيتين من القرآن. فى سورة الأحزاب[1] : ﴿ وإذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وفى الشّورى[1] فى قوله : ﴿ شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً والّذى أوحينا إليك وماوصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه ﴾ ولا خلاف أن محمّداً ﷺ أفضلهم ثمّ بعده إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى عليهم السّلام على المشهور».

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

الوسيلة : قال ابن عبّاس : الوسيلة القربة[2] وعن قتادة : القربة والزّلفى[3] .

أيّهم أقرب: أيّ: اسم موصول مبنيّ على الضّمّ فى محل رفع بدل من فاعل يبتغون وهو الواو. وهم : ضمير مضاف إليه. أقرب : خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو[4] .

كان محذورا : الحذر احترازٌ عن مخيف[5] .

تأمر الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين الّذين يعبدون

---

(١) الآية ٧.
(٢) الآية ١٣.
(٣) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٣.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٣.
(٥) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٥٨.
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حذر» ١١١.(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٣.

الملائكة كمشركي العرب، وعيسى عليه السّلام كالنّصارى، وعزيزاً كاليهود، ويعبدون غير هؤلاء الصّالحين، أن يقول للمشركين : اُدعوا الّذين زعمتم أنّهم آلهةٌ من دونه عزّ وجل فإنّهم لا يملكون كشف الضّرّ الّذى ألحقه الله تعالى بكم ولا تحويل ذلك الضّرّ عنكم إلى غيركم.

وتقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّ أولئك الصّالحين الّذين يدعوهم المشركون يبتغون إلى ربّهم جلّ وعلا الوسيلة، ويطلبون القربة بصالح الأعمال. ويزداد الابتغاء إلى الرّب جلّ وعلا ويتأكد طلب القربة بقدر شدّة القرب من الله تعالى لأنّ الجميع فقيرٌ إلى الله تعالى، فكيف بغير هؤلاء من المقصّرين فى جنب الله تعالى. وكأنّ لسان الحال يقول : ينبغى على هؤلاء المقصّرين فى جنب الله تعالى أن يصحّحوا من خطئهم وأن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وأن يكون اجتهادهم كبيراً وجهدهم مضاعفاً كي يعوّضوا مافات. وبالإضافة إلى ابتغاء هؤلاء الصّالحين القربة من الله تعالى هم يرجون رحمته جلّ وعلا فيكثرون من الطّاعات، ويخافون عذابه فيتحاشون المعصيات. إنّ عذاب ربّك أيّها الرّسول الكريم وأيّها الإنسان كان محذوراً ينبغى أخذ الحذر من إتيان أسبابه. ونحن فى غنىً عن القول إنّ العودة إلى الله تعالى ينبغى أن تكون من كلٍّ من العابدين والمعبودين الرّاضين عن عبادة الضّالّين لهم.

(٧)

« كلّ القرى الظّالمة سوف يهلكها الله تعالى أو يعذّبها، فعلى أهل مكّة أن يكتفوا بمعجزة القرآن، ويطيعوا الرّحمن، ويعصوا الشّيطان »

الآيات (٥٨ ـ ٦٥)

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

وإن من قرية : وما من قرية[1] .

كان ذلك فى الكتاب مسطورا : كان ذلك فى اللّوح المحفوظ مكتوبا[2] .

تقرّر الآية الكريمة أنّه ما من قريةٍ من القرى وما من مدينة من المدن إلاّ والله تعالى مهلكها قبل يوم القيامة بسبب ذنوب أهلها، أو معذّبها عذاباً شديداً وأكيدا. إنّ ذلك كان فى اللّوح المحفوظ مكتوباً ومسطّراً بوضوحٍ وبيان. إنّ على الظالمين من أهل قرية مكّة المكرّمة أن يعوا هذه المعانى وأن يبادروا إلى الإسلام لله تعالى ربّ العالمين وإلاّ كان العذاب سريعاً والإهلاك وشيكاً.

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

سبب النّزول.

عن ابن عبّاس قال : سأل أهل مكّة النّبيّ ﷺ أن يجعل لهم الصّفا[3] ذهباً وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعون. فقيل له : إن شئت أن نستأني بهم لعلّنا نجتبى منهم، وإن شئت أن نؤتيهم الّذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم. قال : لا، بل أستأنى بهم، فأنزل الله عزّ وجلّ الآية الكريمة[4] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٣.

(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٤.

(٣) الصّفا : الجبل الّذى يبدأ منه السّعي.

(٤) أنظر أسباب النّزول للنّيسابورى ٣٣٣ وتفسير الطّبرى ١٥/ ٧٤.

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال لم يرسل بالآيات أو المعجزات الّتى طلبها أهل قرية مكّة إلاّ لأنّ الأمم السّابقة الّتى طلبت من أنبيائها معجزات ماديّة فتحقّقت لم تؤمن فأخذها الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر. ولمّا كان ربّ العزّة والجلال قد سبق علمه إلى أنّ كفّار مكّة بعد تحقيق المعجزات الّتى اقترحوا لن يؤمنوا فإنّه جلّ وعلا لم يحقّق المعجزات الّتى اقترحوا لأنّه جلّ وعلا لم يشأ استئصال شأفتهم. ومن الأقوام الّذين أصرّوا على كفرهم بعد تحقيق المعجزة الّتى اقترحوا ثمود قوم صالحٍ الّذين اقترحوا النّاقة فكانت آيةً مبصرة وحجّةً بالغةً فى الدّلالة على صدق صالحٍ عليه السّلام. وقد قتلت ثمود النّاقة فسوّى الله تعالى الأرض بثمود بسبب ظلمهم بالآية أي كفرهم بها. والله سبحانه وتعالى يرسل الآيات من زلازل وبراكين وفيضانات وما إلى ذلك بقصد تخويف البشر كي يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

وما جعلنا الرّؤيا الّتى أريناك إلاّ فتنةً للنّاس : روى البخاريّ فى صحيحه(١) «عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : ﴿ وما جعلنا الرؤيا الّتى أريناك إلاّ فتنةً للنّاس﴾ قال : هي رؤيا عينٍ أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به : ﴿ والشّجرةَ الملعونةَ فى القرآن ﴾ قال : شجرة الزّقّوم».

فتنةً : اختباراً وامتحانا(٢) وبلاءً(٣).

الآية الكريمة فى تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام.

---

(١) فتح البارى ٨/ ٣٩٨ حديث رقم ٤٧١٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٧٨.

إنّها تقـول للمطصفى ﷺ : واذكر إذ قلنا لك أيّهـا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إنّ ربّك جلّ وعلا قد أحاط بالنّاس علماً وقدرةً وعـصمك منهم فاستمرّ فى تبليغ الرّسالة وتأدية الأمـانة إلى أن يأذن الله تعالى بالفتح ويجىء نصـره عزّ وجلّ لدين الإسلام لله تعـالى ربّ العالمين. ومـاجعلنا الرّؤية الّتـى أريناك عِياناً لـيلة الإسراء والمعراج إلاّ فتـنةً للنّاس، وامتحاناً وبلاءً لأهل مكّة الّذين سـخر منها مشـركوهم وارتدّ بسببها بعض ضعاف الإيمان من المسلمـين، وكذلك ما جعلنا الشّجرة الملعونة فى القرآن الكريم إلاّ اخـتباراً وامتحـاناً لهم. وهذه الشّجرة هي شـجرة الزّقّوم : «هذا هو الصّحـيح. وذكره ابن أبى حاتم عن بضعـة عشر نفسـاً من التّابعين »[1] والزَّقُّـوم : شجـرةٌ مـرّةٌ كريهة الرّائحة ثـمرها طعـام أهـل النّار[2] قال عزّ من قائل [3]: ﴿ إنّ شجرة الزّقـوم. طعامُ الأثيم. كالمُهْل[4] يغلى فى البطون. كغلي الحميم[5] ﴾ أخبر رسول الله ﷺ أنّه رأى الجنّة والنّـار ورأى شجرة الزّقّوم فكذّبوا بذلك حتّى قال أبو جهلٍ عليـه لعائن الله هاتوا لنا تمراً وزبداً وجعل يأكل من هذا ويقول : تزقّموا فلا نعلم الزّقّوم غير هذا[6] .

وتقرّر الآية الكريمة فى ختامها أنّ ربّ العزّة والجلال يخوّف أهل مكّة وسائر المشـركين بآي الذّكـر الحكيم الّتى تبـينّها سنّـة أشرف المرسلين فـمـا يزيدهم ذلك التّخويف إلاّ طغياناً كبيراً ليس له نهاية.

---

(١) فتح البارى ٨/ ٣٩٩.

(٢) المعجم الوسيط : «زقم».

(٣) سورة الدخان ٤٣ـ٤٦.

(٤) المُهْل : دُرْدِيُّ الزّيت الأسود وهو مايبقى أسفله. (القاموس).

(٥) الحميم : الماء الشّديد الحرارة.

(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

وإذ قلنا : واذكر إذ قلنا[1] .

لمن خلقت طينا : منصوب على نزع الخافض، أي من طين[2] وأجاز العكبريّ أن يكون حالاً على الرّغم من كونه جامداً، وذلك لما فيه من معنى الأصالة[3] .

وأذكر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إذ قلنا للملائكة الكرام اسجدوا لآدم عليه السّلام، حينما خلقه الله تعالى من طين ونفخ فيه من روحه، سجود تشريف وتكريم، فسجدوا إلاّ إبليس الّذى كان من الجنّ والّذى فسق عن أمر ربّه جلّ وعلا فقال فى إنكار : أأسجد أنا الّذى خلقتنى من نارٍ سامية، لمن خلقته يا الله من طين. إنّ الطّين فى نظر اللّعين لا يسمو سموّ النّار.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٠.

(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٦٤ وتفسير الطّبرى ١٥/ ٨٠ والجلالين.

(٣) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٦٤.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

أرأيتك : هي كلمة تقولها العرب عند الاستخبار بمعنى أخبرنى[1] ويجرى أرأيت مجرى أخبرنى فيدخل عليه الكاف ويُتْرَك التّاء على حالته فى التّثنية والجمع والتّأنيث ويُسلَّط التّغيير على الكاف دون التاء[2] .

لأحتنكنّ : يجوز أن يكون من قولهم : حَنَكْتُ الدّابّة أصبت حنكها باللِّجام والرَّسن، فيكون نحو قولك : لأُلجمنّ فلاناً ولأُرسننّه. ويجوز أن يكون من قولهم : احتنك الجراد الأرض أي استولى بحنكه عليها فأكلها واستأصلها، فيكون معناه : لأستولينّ عليهم استيلاءه على ذلك[3] والحَنَك من الإنسان والدّابّة: باطن أعلى الفم من داخل[4] واحتنك الجراد الأرض : أتى على نبتها وأكل ماعليها[5] وقوله عزّ وجلّ حاكياً عن إبليس : ﴿ لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلا ﴾ مأخوذٌ من احتنك الجراد الأرض إذا أتى على نبتها. قال الفراء : يقول لأستولينّ عليهم إلاّ قليلاً يعنى المعصومين. قال محمّد بن سلاّم : سألت يونس عن هذه الآية فقال : يقال كان فى الأرض كلأٌ فاحتنكه الجراد أي أتى عليه. ويقول أحدهم : لم أجد لجاماً فاحتنكت دابّتى أي ألقيت فى حنكها حبلاً وقدتها. وقال الأخفش فى قوله : ﴿لأحتنكنّ ذريّته﴾ قال : لأستأصلنّهم ولأستميلنّهم[6] .

---

(١) لسان العرب : «رأى» وتسيز الطّبرى ١٥/ ٨٠ والجلالين والجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٦٥ ومفردات الرّاغب الأصفهانى «رأى» ٢٠٩.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى «رأى» ٢٠٩.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حنك» ١٣٤.

(٤) انظر لسان العرب : « حنك ».

(٥) لسان العرب : « حنك ».

(٦) لسان العرب : « حنك ».

قال إبليس آلعين لربّ العالمين : أخبرنى يا ألله عن هذا الّذى كرّمته عليّ وفضّلته. وكأنّ لسان حال الّلعين يسأل عن السّبب الّذى من أجله فضّل الله تعالى آدم عليه السّلام على الّلعين. ويبادر الّلعين إلى القَسَم فيقول : والله لئن أخرتنى ياربّى إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيّة آدم إلاّ قليلاً منهم، ولأقودنّهم إلى مهاوى الرّدى، ولأستأصلنّهم جميعاً بالشّرور والآثام إلاّ عبادك منهم المخلصين.

والمعروف أنّ الّلعين طلب من الله تعالى أن يمهله إلى النّفخة الثّانية الّتى يحيا الخلائق، بإذن الله تعالى، بسببها، كي يضمن الّلعين الخلود، ولكنّ الله تعالى أمهله إلى النّفخة الأولى الّتى يموت الخلائق، بإذن الله تعالى، بسببها، إلاّ ما شاء ربّك من الملائكة والحور والولدان. وفى هذا، المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا ـ مثلاً ـ فى سورة الحجر[1] : ﴿ قال ربّ فأنْظِرْنى إلى يوم يُبْعَثون. قال فإنّك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم ﴾.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾

موفوراً : وافراً [2] كاملا[3] .

إنّ ربّ العزة الّذى سبق علمه إلى ماسوف يقوم به الّلعين من إغواءٍ لذرّيّة آدم عليه السّلام لا يؤاخذ الّلعين بسابق علمه جلّ وعلا ولكن بعمل الّلعين. إنّ ربّ العزّة يقول لّلعين اذهب مُنْظَراً إلى وقت النّفخة الأولى فأنت مسئولٌ عمّا تعمل والّذين يتّبعونك من ذرّيّة آدم عليه السّلام مسئولون كذلك عمّا يعملون فإنّ جهنّم جزاؤكم جميعاً جزاءً كاملاً غير منقوص، وافراً غير مبخوس. وفى الآية الكريمة يبدو الشّيطان الرّجيم قائد فريق الضّالّين عن سواء السّبيل.

---

(١) الآيات ٣٦ ـ ٣٨.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٠و٨١.
(٣) الجلالين.

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ
مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾

واستفزز : واستخفف واستجهل[١] واستخفّ[٢] وأزعج : ﴿ فأراد أن يستفزّهم من الأرض ﴾[٣] أي يُزْعِجَهُمْ. وفزّنى فلانٌ أي أزعجنى. والفَزُّ : ولد البقرة، وسُمِّيَ بذلك لما تُصوِّر فيه من الخِفّة. كما يُسَمى عِجْلاً لما تُصوِّر فيه من العَجَلة[٤].

بصوتك : عن ابن عبّاس : صوته كلّ داعٍ دعا إلى معصية الله[٥].

وأجلب عليهم : يقال : أجلب فلانٌ على فلانٍ إجلاباً إذا صاح عليه. والجلبة : الصّوت. وربّما قيل : ماهذا الجلب كما يقال الغلبة والغَلَب والشّفقة والشّفق[٦] وأصل الجَلْب سوق الشّىء من موضعٍ إلى آخر[٧] والجَلَب والجَلَبة : الأصوات. وقيل : هو اختلاط الصّوت[٨] و أجلب عليه إذا صاح به واستحثّه[٩] وجلَّب على الفَرَس وأجلب وجَلَبَ يَجْلُب جَلْباً، قليلة : زجره. وقيل هو إذا

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨١.
(٢) الجلالين.
(٣) سورة الإسراء ١٠٣.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فز» ٣٧٩.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨١.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨١.
(٧) لسان العرب : «جلب» ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «جلب» ٩٥.
(٨) لسان العرب : «جلب».
(٩) لسان العرب : «جلب».

ركب فَرَساً وقاد آخر يستحثّه، وذلك فى الرّهان وقيل : هو إذا صاح به مِنْ خَلْفه واستحثّه للسَّبْق. وقيل : هو أن يُرْكِبَ فرسه رجلاً، فإذا قَرُب من الغاية تَبع فرسه فجلّب عليه وصاح به ليكون هو السّابق، وهو ضربٌ من الخديعة. وفى الحديث : لا جَلَب ولا جَنَب. فالجَلَب : أن يتخلّف الفرس فى السّباق فيُحرَّك وراءه الشّىءُ يُسْتَحَثّ فيسبق. والجَنَب : أن يُجنَبَ مع الفَرس الّذى يسابقُ به فَرَسٌ آخر، فيُرْسل، حتّى إذا دنا تحوّل راكبه على الفَرَس المجنوب فأخذ السَّبْق[1] .

بخيلك ورجلك : عن ابن عبّاس : قوله : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ قال : خيله كلّ راكبٍ فى معصية الله. ورجله كلّ راجل فى معصية الله[2] والرِّجل : قَدَم الإنسان وغيره. قال أبو إسحاق : والرجل من أصل الفخذ إلى القدم، أنثى[3] واشتقّ من الرِّجل رَجِل وراجل للماشى بالرِّجل. وجَمْع الرّاجل رَجّالة ورَجْل نحو ركْب ورِجال نحو رِكاب لجمع الرّاكب[4] .

وشاركهم فى الأموال والأولاد : عن ابن عبّاس : الأموال، كلّ مالٍ فى معصية الله[5] والأولاد: أولاد الزِّنى[6] .

---

(١) لسان العرب : «جلب» .
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨١.
(٣) لسان العرب : «رجل» .
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «رجل» ١٩٠.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٢.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٢.

تستمر الآية الكريمة فى تبيين غضب الله تعالى على اللّعين وتبيين مسؤليته الكاملة عن كلّ مايقوم به من إضلال ومسئوليّة كلّ من استجاب لإغراء اللّعين وإغوائه. والآية الكريمة يظهر فيها اللّعين وجنده فى هيئة الجيش الضّخم الّذى يهيج النّاس على إتيان كلّ منكر وارتكاب كلّ ذنب، بكلّ وسائله الشّيطانيّة الّتى يسوق بها قطيع الضّالّين إلى مهاوى الرّدى. إنّ اللّعين يستفزّ من استطاع من النّاس ويزعجهم بأصواته المحرّضة على الشّرور والآثام فى هيئة دعاة الفتن وشيوع الفواحش ماظهر منها وما بطن، مستخدماً جنده من شياطين الجنّ والإنس، الفرسان والمشاة معاً، محرّضاً على الاشتراك فى الأموال بأكلها بالباطل، وفى الأولاد بارتكاب جريمة الزّنى.

ومن البيّن أنّ الفريق الّذى قاده اللّعين والفريق الّذى ساقه اللّعين قد استجاب كلٌّ منهما له.

وبشأن الفريق الآخر المتردّد، يلجأ اللّعين فى حقّه إلى سلاح الإغراء والوعود المعسولة الّتى لا أوّل لها ولا آخر، والّتى ليس لها رصيدٌ من الواقع. ومن هذه الوعود على سبيل المثال أنّه يمنّى كلّ من ارتكب إحدى الجرائم بأنّ يد العدالة لن تناله فيفاجأ المجرم بأنّ يد العدالة قد طالته ونالته ووقتها لا ينفع النّدم. وكما لا ينفع النّدم فى الحياة الأولى لا ينفع فى الحياة الآخرة. ومن الآيات الكريمات الّتى فصّلت مجمل القول هنا: ﴿ وَعِدهُمْ ومايعدهم الشّيطان إلاّ غرورا ﴾ قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة ابراهيم[1]: ﴿ وقال الشّيطان لمّا قُضِيَ الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطانٍ إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ. إنّى كفرت بما أشركتمون من قبل. إنّ الظّالمين لهم عذاب أليم ﴾.

والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الفريق النّاجى بإذن الله تعالى.

---

(١) الآيــة ٢٢.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

وكفى بربّك وكيلا : وكفاك يامحمّد ربّك حفيظاً وقيماً بأمرك[1] .

بعد أن تحدّث السّياق عن الّذين يقودهم الشيطان الرّجيم، والّذين يسوقهم، والّذين يخدعهم بالوعود المعسولة والأمانى الكاذبة يتحدّث فى هذه الآية الكريمة عن عباد الله تعالى المخلَصين. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ عباد الله تعالى الّذين أضيفوا إليه عزّ وجلّ إضافة تكريم وتشريف، ليس للشّيطان الرّجيم عليهم أدنى سلطان، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو وليّهم وناصرهم. وكفى بربّك ، أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، وأيّها الإنسان، وكيلاً وحفيظاً ونصيرا.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٣.

(٨)

« الإنسان الشّكور يثاب فى الأولى والآخرة،
والإنسان الكفور يعاقب
فى الأولى والآخرة »

الآيات (٦٦ ـ ٧٢)

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

ربّكم الّذى يزجى لكم الفلك : عن ابن عباس : يجرى الفلك(١) قتادة يسيّرها(٢) .

تشير الآية الكريمة إلى إحدى نعم الله تعالى العظمى على النّاس، وهي نعمة الحمل فوق الماء، وذلك فى هيئة سوق الله تعالى السّفن فى البحر من أجلنا بواسطة الرّيح الطيّبة الملتئمة الأجزاء. وتنصّ الآية الكريمة على أهمّ أهداف النّاس من ركوبهم البحر وهو ابتغاء فضل الله تعالى وطلب الرّزق. إنّ الله سبحانه وتعالى كان بنا رحيماً دائماً وأبداً. ولا يستطيع الإنسان وهو يرى السّفن فى البحر جاريات كالجبال فى الفخامة والضّخامة إلاّ أن يشكر لله تعالى نعمه وآلاءه الّتى لا تُحْصَى، فعلى كلّ إنسان أن يفرد الله تعالى بالعبادة. وإذا كانت السّفن قديماً

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٤.
(٢) (١) تفسير الّبرى ١٥/ ٨٤.

تسيّرها الرّياح وكانت السّفن حديثاً تسيّرها الطّاقة فى المقام الأوّل فإنّ نعم الله تعالى ربّما كانت أشدّ ظهوراً مع الطّاقة، فينبغى أن يكون شكر الإنسان لله تعالى موافقاً لزيادة النّعم والآلاء، وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد ﴾.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة تشير إلى نعمة حمل الله تعالى النّاس فوق الماء فى البحر، فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تشير إلى تحوّل هذه النّعمة بإذن الله تعالى نقمة، وإلى تحوّل النّاس سريعاً من الشّكران إلى الكفران مع تحوّل النّقْمةَ نعْمة. وهكذا يكون الانسجام واضحاً بين الماء وبين الكافر فى التّقلّب من حال إلى حال، ومن النّقيض إلى النّقيض. إنّ الآية الكريمة تقول للنّاس : إنكم إذا مسّكم الضّرّ فى البحر فخشيتم الغرق فى ذات الماء الّذى كان يحملكم فوق ظهره ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه جلّ وعلا، وغاب من كنتم تعبدون من دون الله تعالى، وأخلصتم الدّعاء والعبادة لله تعالى وحده لا شريك له، ونسيتم أيّها المشركون ماكنتم تعبدون من قبل. فلمّا استجاب الله دعاءكم وكشف الضّرّ عنكم ونجّاكم إلى برّ الأمان أعرضتم عن عبادته جلّ وعلا وتوحيده سبحانه وتعالى وكان جنس

(١) سورة إبراهيم ٧.

الإنسان دائماً وأبداً الغاية في الكفر بالله تعالى، وفي كفران النّعم والآلاء، ومجازاة الإحسان من الله تعالى إليهم بالجحود والنّكران والكفران.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

جانب البّر : ناحية البّر(١) .

أو يرسل عليكم حاصباً : أو يمطركم حجارةً من السّماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط(٢) .

ثمّ لا تجدوا لكم وكيلا : ثمّ لا تجدوا لكم مايقوم بالمدافعة عنكم من عذابه ومايمنعكم منه (٣).

تارة أخرى : مرّة أخرى(٤) .

فيرسل عليكم قاصفاً من الريح : هى الّتى تقصف مامرّت به فتحطمه وتدقّه. من قولهم : قصف فلانُ ظهر فلان إذا كسره(٥) .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٤.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٤.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٤.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٥.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٥.

ثمّ لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً : ثم لا تجدوا لكم علينا تابعاً يتبعنا بما فعلنا بكم ولا ثائراً يثأرنا بإهلاكنا كم (١).

تشير الآية الكريمة الأولى إلى أنّ الباعث للمشركين على العودة إلى الشّرك هو شعورهم بالأمان فى البرّ الّذى نجّاهم الله تعالى إليه بعد أن كادوا يغرقون فى الماء بابتلاع البحر سفينتهم أو ملء جبال الأمواج تلك السّفينة بالماء فقلبها فإغراقها. وهكذا يكون جزاء الإحسان إلى المشركين الكفران منهم لمجرّد شعورهم بالأمان والاطمئنان. وقد غفل المشركون المخدوعون ببرّ الأمان وشاطىء السّلامة أو تغافلوا، وجهلوا أو تجاهلوا أنّ الغرق يكون بإذن الله تعالى فى البرّ كما يكون فى البحر، وربّما كان الغرق فى البرّ أشد هولاً من الغرق فى البحر. إنّ الآية الكريمة فى أسلوب الإنكار تسأل المرتدّين إلى الشّرك أفأمنتم أن يخسف الله تعالى بكم جانب البرّ كما فعل بقارون الّذى خسف الله تعالى به وبداره الأرض، وبذلك يقوم البرّ بعمليّة الابتلاع الّتى يقوم بها الماء أساساً فى حقّ السّفن ومافي حكمها، أو أمنتم أن يرسل الله تعالى عليكم حاصباً من السماء ويمطركم حجارةً تقتلكم كما فعل بقوم لوطٍ عليه السّلام، وبذلك يقوم البرّ بعمليّة جبال الأمواج بجامع إرسال الماء فى البحر والحجارة فى البرّ من فوق السّفينة والنّاس، وبذلك لا يجد النّاس فى كلتا الحالتين لهم من دون الله تعالى وكيلاً ولا حفيظاً. ويصحّ أن نربط عمليّة الابتلاع فى البرّ بالزّلازل أساساً، ويصحّ أن نربط عمليّة إرسال الحاصب بالبراكين أساساً. وهذه الزّلازل والبراكين تحدث بإرادة الله تعالى بفعل حرارة الأرض فى الأعماق إلى الحدّ الّذى يكون معها باطن الأرض بحاراً هائجة مائجةً ثمرة انصهار كلّ مافى باطنها بفعل تلك الحرارة الخياليّة الارتفاع. إنّ الأرض بإرادة الله تعالى تضطرّ لأن تتنفّس فى هيئةالزّلازل والبراكين على غرار اضطرار القدر فوق النّار للتّنفّس تحاشياً للانفجار. وهكذا تقترن الحجارة والنار بعمليّة البرّ، وبذلك تبدو عملية البرّوكأنّها أشد هولاً من عملية البحر. إنّ فى البحر إغراقاً بالماء، وإنّ فى

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٥.

البرّ إغراقاً وهدماً وردماً وإحراقا.

والآية الكريمة الأخرى تواصل طرح الشقّ الآخر من السؤال فى أسلوب الإنكار كذلك فتقول للمرتدّين : أم أمنتم أيّها المشركون أن يعيدكم الله تعالى فى البحر مرّة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الرّيح يكسر سفنكم ويحطمها فيغرقكم بسبب كفركم وأمنكم مكر الله تعالى. ولن تجدوا لكم علينا تابعاً يتبعنا مطالباً بحقٍّ لكم.

ومن البيّن أنّ البحر وهو كلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير(١) هو محور الآيتين الكريمتين. وما أشدّ التّناغم بين الكافر الحوّل القلّب وبين الماء السّريع التّحوّل بإذن الله تعالى بين النّعمة والنّقمة. إنّ واجب الإنسان أن يشكر لله تعالى نعمه العظيمة ومنها نعمة الحمل فى البرّ والبحر وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة. إنّ نعمة الحمل هذه من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان. وقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذا التّكريم.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ
فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال كرّم بنى آدم عليه السّلام وشرّفهم فلم ينقصهم شيئاً ممّا خصّ به أباهم آدم عليه السّلام. ومن مظاهر التّكريم استواء الخلق وحسن الصّورة. وممّا جاء فى هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا (٢): ﴿لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسنِ تقويم﴾ وحينما تترقّى العناصر الأرضية من الجماد إلى النّبات إلى الحيوان إلى الإنسان يتبيّن البون شاسعاً بين الإنسان وبين أرفع الحيوانات حظّاً من الجمال والكمال. وبذلك يتبيّن أنّ الإنسان نسيجُ وَحْدِه ويأتى على رأس

(١) مفردات الراغب الأصفهانى : «بحر» ٣٧.
(٢) سورة التّين ٤

قائمة المخلوقات فى هذه الكرة الأرضيّة. ويلحق بتكريم الله تعالى جنس الإنسان حمل الله تعالى له فى البرّ على مختلف وسائل النّقل المخلوقة والمصنوعة، وفي البحر عل الجوارى المنشآت فى البحر الّتى تتدرّج حجماً حتّى تكاد تضاهى الجبال ضخامةً وفخامة. يتمّ كلّ ذلك بارادة الله تعالى فوق الماء الّذى لا يستطيع أن يحتفظ بإرادة الله تعالى بأصغر حصاةٍ إلاّ فى أعماقه. والحمل فى البرّ والبحر لأغراضٍ شتّى ومنها طلب الرّزق. وتنصّ الآية الكريمة على رزق الله تعالى جنس الإنسان من الطّيّبات والمستلذّات امتداداً للتّكريم الّذى يتوّج بتقرير تفضيل الله تعالى جنس الإنسان تفضيلاً على كثير ممّن خلق جلّ وعلا وربّما فَضَلَ بتقواه الملائكة الكرام المفردى الإرادة الّذين لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون، لأنّ جنس الإنسان ثنائيّ الإرادة يصحّ أن يصدر عنه كلٌّ من الخير والشّرّ. يقول على سبيل المثال ابن كثير(١) فى هذا المعنى : «وقد استدلّ بهذه الآية الكريمة على أفضليّة جنس البشر على جنس الملائكة».

إنّ واجب النّاس أن يشكروا لله تعالى نعمه وإلاّ كان الحساب عسيراً. وإلى الثّواب والعقاب أشارت الآيتان الكريمتان التّاليتان.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ
أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يوم ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم : اذكر(١) وعن مجاهد وقتادة : بإمامهم، قال: نبيّهم(٢) وعن ابن عبّاس : أي بكتاب أعمالهم. وكذا قال أبو العالية والحسن والضّحّاك. وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى(٣) : ﴿وكلّ شيءٍ أحصيناه فى إمامٍ مبين﴾ وقال تعالى(٤) : ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه﴾ الآية. ويحتمل أنّ المراد بإمامهم أي كلّ قومٍ بمن يأتمّون به. فأهل الإيمان ائتمّوا بالأنبياء عليهم السّلام، وأهل الكفر ائتمّوا بأئمّتهم كما قال(٥) : ﴿وجعلناهم أئمّةً يدعون إلى النّار﴾(٦).

ولا يظلمون فتيلا : الفتيل هو الخيط المستطيل(٧) المنفتل الّذى فى شقّ بطن النّواة (٨).

تشير الآية الكريمة الأولى إلى يوم القيامة، يوم الثّواب والعقاب فتقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال سوف يدعو كلّ أناسٍ بإمامهم الّذى ائتموا به من كتاب أو نبيّ أو غير ذلك ممّا لم ينزل الله تعالى به من سلطان. فمن أوتي كتاب أعماله بيمينه ، دليلاً على أنّه فى الحياة الدّنيا هُدِي إلى الطّريقة الّتى هي أقوم وعمل صالحاً،

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٦. وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٢.
(٣) سورة يس ١٢.
(٤) سورة الكهف ٤٩.
(٥) سورة القصص ٤١.
(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢.
(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢.
(٨) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٦.

فأولئك يقرأون يوم القيامة كتاب أعمالهم بسعادةٍ وانشراح ولا يظلمون وزن الفتيل الّذي فى شقّ النّواة بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة.

وتتحدّث الآية الكريمة الأخرى عن الفريق الآخر الّذى يوصف بأنّه كان فى الحياة الأولى أعمى البصيرة والبصر عن تكريم الله تعالى لجنس الإنسان فهجر طريق الفلاح، وعمل السّيّئات، وبادل إحسان الله تعالى إليه بالإساءة والكفران، لذا هو أعمى عن حجّته فى الآخرة(١) وأضلّ سبيلاً لأنّ مصيره إلى النّار وبئس القرار. ونستطيع أن نفهم أنّ هذا الفريق يؤتى كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره والعياذ بالله.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٨.

(٩)

« أنواعٌ من عمى الضّالّين ، وأنـــواعٌ مـــن وســـائل تثبيـــت المصطفى ﷺ والمؤمنين»

الآيات (٧٣ـ٨٨)

وَإِن كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ
وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

وإن كادوا ليفتنونك عن الّذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره : الواو : استئنافيّة. إن : مخفّفة من الثّقيلة مهملة وجوبا(١) أي يوقعونك فى بليّةٍ وشدّةٍ فى صرفهم إيّاك عمّا أوحى إليك(٢) وتلك المقاربة فى زعمهم سببها رجاؤهم أن يفتري على الله غير ماأوحى الله إليه من تبديل الوعد وعيداً أو الوعيد وعداً وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله مالم ينزل عليه(٣) .

وإذاً لاتّخذوك خليلا : الخُلّة بضمّ الخاء، المودّة، لأنّها، فيما يقال : تتخلّل النّفس، أي تتوسّطها(٤) .

ولولا أن ثبّتناك : لولا : حرف يدلّ على امتناع شيءٍ لوجود غيره(٥) .

لقد كدت تركن إليهم : لقد كدت تميل إليهم وتطمئنّ(٦) وكاد من أفعال المقاربة(٧) .

إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات : عن ابن عباس : يعنى ضعف

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٧٥ والبحر المحيط ٦/ ٦٥.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فتن» ٣٧٢.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٦٤.
(٤) انظر مفردات الراغب الأصفهانى : «خل» ١٥٣.
(٥) المعجم الوسيط : «لولا» ٨٤٦ وانظر مفردات الراغب الأصفهانى : «لولا» ٤٥٨.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٩.
(٧) البحر المحيط ٦/ ٦٥.

عذاب الدّنيا والآخرة(١) .

من البيّـن أنّ الآيات الكريمات فى تثبـيت الله تعالى حـبيبـه المصطفى ﷺ، وتثبيت فؤاد الحبيب وتسليته عليه الصّلاة والسلام والمؤمنين.

إنّ الآية الكريمة الأولى تقـرّر أنّ المشركين عمـوماً، مشـركى مكّة والطّائف خصوصاً كادوا يفتنـون المصطفى ﷺ عن القرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعالى إليه ليـفتـري على الله تعالـى غيـره، وقاربوا يوقـعون المـصطفى ﷺ فى بليّة وشـدّة بقصدهم السّيّىء أن يبـدل شيئاً من القرآن الكريم، ولكّن الله تعالى عصم حـبيبه المصطفى ﷺ. إنّ الفتنة لم تتمّ، وبالتّـالى لم يتمّ مايترتّب عليـها. ولو فُرِض أن شيئاً من ذلك قد تمّ ـ ويأبى الله تعـالى ذلك ـ إذن لاتّخذ المشركون المصطفى ﷺ أعزّ الأصدقـاء والأولياء. ومن البيّن أنّ الأمور كلّها ممتـنعة. وإنّ الشّىء ذاته يقال عن الأمـور الّتى أومأت إليـها الآيتـان الكريمتان التّـاليتـان لأنّ لولا حرف امـتناعٍ لوجود. إنّه بسـبب وجود التّثبـيت من الله تعالى امتنع اقـتراب المصطفى ﷺ من الميل إلى المشركين شيئاً قليلاً، كمـا امتنع مايترتّب على الاقتراب من الميل وهو أن يذيق الله تعالى حبـيبه ﷺ ضعف عذاب الدّنيا والآخرة، وأنّ يـخذل فلا يجد له نصيرا. إنّ الأمور كلّها ممتنعة.

ومن الوجهة الصّوتيّة يوافق الـقول : ﴿إذاً لأذقناك ضعف الحياة﴾ شطراً من بحر المتقارب، وصفته هنا ـ ـ ٥ـ/ ـ ـ ٥ ـ ٥/ ـ ـ ٥ ـ ٥ / ـ ـ ٥٥ ﴿إذن لأذقناك ضعف الحياه﴾ فعولُ فعولن فعولن فعولْ

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٨٩.